ثالثاً: تعليقات ومناقشات

في رسم الكلمات وضبطها

نظرة نقدية في (المعجم المدرسي)

تأليف: محمد خير أبو حرب *

الأستاذ جورج عيسى- دمشق

أولاً : في رسم المواد (أو جذور الكلمات)

ينظر المعجميون في ترتيب المواد إلى أن الكلمات تجمعها صلة رحم معينة هي اشتراكها في جذر واحد، ثلاثي في الغالب " ف ع ل" أي فاء الكلمة وعينها ولامها. وهو ما يعبر عنه بالمادة، وتحتها تندرج مفرداتها أو مشتقاتها.

وهم في ذلك " لا ينسبون إلى حروف المادة معنى معيناً. بل إنهم يعترفون بإمكان تعدد المعاني بين الكلمات التي تشترك في هذه الأصول.. لذلك كان الإجراء المفضل عندهم في معاجمهم أن يفصلوا في الكتابة بين أصول المادة حتى لا تفهم منها كلمة ما."[1] فالكلمات التالية مثلاً (شال) و (شوال) و(شوَل) تشترك في "ش و ل" التي تمثل جذر هذه الكلمات، أو ما نعبر عنه بأصول المادة التي هي أصل الاشتقاق، والتي تنسب المفردات إليها "دون أن ننسب إلى هذه الأصول الثلاثة أي معنى معجمي".[2] لذلك كان الأفضل أن ترسم المواد في (المعجم المدرسي) [3] بأحرف منفصلة، مثل "ش و ل" بدلاً من (شول) و "ح ض ر" بدلاً من (حضر)، وهكذا.

وعلى ذلك يرتب المعجميون موادهم حسب الترتيب الهجائي، إن كان بالطريقة القديمة أو الحديثة (أي حسب أواخر الكلمات أو أوائلها). ينطبق ذلك على كلمات اللغة العربية جميعها كما يقول "تمام حسّان" فيما عدا الضمائر والظروف والأدوات وبعض الخوالف، [4] لأنها الكلمات التركيبية الوحيدة في اللغة. أما الكلمات الدخيلة والمعربة الزائدة على ثلاثة أحرف، مما لا يمكن

الاشتقاق منها، فتعدّ حروفها كلها أصلية، وتثبت في مواضعها من الترتيب الهجائي حسب تتابع حروفها، لأنها تخرج عن نطاق اشتراكها في أصل واحد [٥].

ثانياً: في رسم الكلمات وضبط الحروف

• يعود ما وقع فيه (المعجم المدرسي) من اضطراب في رسم الكلمات "الدخيلة والمعرّبة" إلى ما له صلة بأصوات بعض الحروف في الألفاظ الأجنبية، ونعني بذلك حروف (P وV و g) وهو ما ليس له نظير في أبجديتنا. وحتى نلائم بينها وبين حروفنا المقاربة لها، نرسم عادة كلاً من حرفي (ب) و (ف) بثلاث نقط، مقابل الحرفين الأول والثاني، بينما نرسم حرف (غ) أو (ج) أو (ك) مقابل الحرف الثالث، للتوصل إلى صوت الحرف الذي يقع بين الجيم والكاف "الجيم المصرية" أو نرسمه أحياناً كافاً فارسية (ڪ). وعلى الرغم من المقترحات والتوصيات بشأن تعريب هذه الأحرف الأجنبية وغيرها منذ زمن، إلاّ أن ذلك لم ينفّذ بشكل فعلي، ولم تلتزم به مقررات كتبنا المدرسية، ولا مصفوفات طباعتنا العربية، وظل تعريب الأصوات الأعجمية حتى الآن دون منهجيّة موحدة.

لقد اتّبع صاحب (المعجم المدرسي) هذا التقليد المجمع عليه في رسم الحرفين (ب) و (ف) وهو ما حدّده في صفحة رموزه [٦]، لكنه لم يذكر شيئاً عما يقابل الحرف (g) الذي جاء رسمه في المعجم جيماً أو غيناً. ويبدو أنه اتبع في ذلك ما قرره مجمع اللغة العربية في القاهرة[٧]. ولئن تقيّد إلى حد بعيد بهذه الرموز التي حددها لنفسه – صراحة أو ضمناً- في كتابة الكلمات المعربة والدخيلة، إلا أنه لم يراع أحياناً وجه الدقة فيها، كما في الكلمات التالية التي لم يلتزم فيها بالباء المثلثة النقط: (نبتون) في مادة (أبلوتون) ص٣١- الباتولوجية ص٨١-البوتاس والبوتاسيوم ص١٣٧-باكستان في مادة (الهند) ص١١١٨. ولم يراع وجه الدقة في تعريب الحرف (g) فنقله إلى الحرف (ج) كما في (الجلسرين) ص٢٠١ ومرة أخرى إلى الحرف (غ) كما في (الهيموغلوبين) ص١١٢٦. أما في كلمات أخرى فقد أثبته بالحرفين معاً، مثل (الجرافيت،

الغرافيت) ص١٨٦.

• حرص صاحب المعجم -كما يستدل المطّلع- على أن يكتب الكلمات ذات الأصل اللاتيني المنتهية بالمقطع logy والتي تعني العلم، بالتاء المربطة، كما في كلمة (البيولوجية) ص١٤٤ و (الجيولوجيـــة) ص٢٢١ [٨] و(الميثولوجيـــة) ص١٠١٣ وغيرها. ثم شذ عن هذا الالتزام في مواضع وألفـــاظ أخـــرى مثـــل (الميثولوجيا) التي وردت في (علم الأساطير) ص٤٩٨ وكـــان عليـــه أن يتَبـــع طريقة واحدة في كتابتها، وإن كنا نرى أن ينتهي المقطع المذكور ب (يا) بـــدلاً من التاء.

والغريب في هذا الباب أنه أُثبت حرف الباء في كتابة (بســـيكولوجية) ص١١٠ مع أنه في أصله الأجنبي يكتب و لا يلفظ.

• وفي تقصّيه عيوب المعجم الحديث يقول عدنان الخطيب: "ومن أكبر عيوب المعجم الحديث في رأينا عدم التزامه بالصورة الإملائية الواحدة، وهـــذا يعني أن الكلمات التي تصح كتابتها بأكثر من صورة إملائية واحدة لا يصـــح أن ترى في معجم لغوي على أكثر من صورة واحدة إذا ما ترددت بين سطوره مرة أخرى" [٩].

ولقد وقع هذا العيب في المعجم في ألفاظ معرّبة عديدة، منها:

- (المنجا والمنجو) في مادة (أنبه) ص٦٧ و (المنجة والمنجـــو) فـــي ص١٠٠٥.

- (البندورة والبنادورى) ص١٣١ و(البنـــادورى والبنـــدورة) هـــامش ص٦٥٥.

- في مادة (سنم) ص ٥٢٥ يكتب (السنما) بينما ترد (السينما) بالياء في ص٩٢ (العمود الأول) وص٣٣٨ (ع١). وص٦٨٥ (ع١). وص٩٥٣ (ع١).

- في مادة (مكر) يذكر (المكرفـــون) ص٩٩٩، وفـــي ص٢٨٢ (ع٢) يكتبه برسم آخر (الميكروفون) وكذلك في ص٣٨٧ (ع١).

- في ص١١٠١ يذكر (الهيدروجين) وكذلك في الصفحات ١٠٦ (ع١)-٦٥٩(ع١)-١٠٨٩(ع١)، أما في ص٥٩(ع٢) وص١٠٦٧ (ع٢) فيذكره دون ياء (الهدروجين)، ثم يرد برسم ثالث دون الياء الأولى والواو (الهدرجين) في ص٣٤ (ع١).

- ويظهر هذا الاضطراب والتشويش حتى في رسم الكلمات العامية، ففي مادة (إجّاص)ص٣٥ يقول: (يطلق عليه في الشام أجّاص)، وفي ص٦٨ يقول (إنجاص: عامية شامية) وكذلك في مادة (كمّثرى) ص٩١٨ (يسمى في الشام الإنجاص).

- وفي (البراصة) ص١٠١ يقول (وهو البراصياء بلغة الشام)، وفي (الكرّاث) ص٩٠١ (والعامة في دمشق تسميه البراصية).

إنه لعيب كبير حقاً أن يكون ذلك في معجم لغوي.

• ولكن العيب الأكبر يتمثل في الرسم الإملائي. وها نحن ننظم ما ورد في المعجم من أخطاء إملائية في جدولي الخطأ والصواب:

ص(الصفحة)	ع (العمود)	س (السطر)	الخطأ	الصواب
٦٠	٢	١١- [١٠]	الإلاهيات	الإلهيات [١١]
١٧٨	١	٩	جبرئيل	جبرائيل
٢١٥	٢	٢	دعان	دعاني
٣٦٧	١	٤	الدنيا (ج) دناً	الدنيا (ج) دنىً
٤٣٦	١	١	الضحا	الضحى [١٢]
٥٢٢	٢	٩-	(ج) سماوات	(ج) سموات [١١]
٦٣٨	١	٧	والسماوات	والسموات
١١٧٦	١	٥-	بيأس	بيئس
١١٢٨	١	٧	جاءوها	جاؤوها
١١٢٩	١	١٢	ووءولاً	ووؤولاً

ونعقب على الخطأ ما قبل الأخير بقولنا: إذا احتج المؤلف بإتباع الرسم القرآني، فلماذا أورد استشهاده بالآية "٥١" من "الإسراء" في ص١٠٦٢ "فسينغضون إليك رؤوسهم"؟ ولماذا جاء رسم (اقرؤوا) في "الحاقة/١٩" ص١٠٩٣، ولم يتبع الرسم القرآني (اقرءوا)؟. و كذلك ما ورد في الآية "٢٥٥" من سورة البقرة ص٧٣ (يؤوده)، وهو نفسه كان قد نبه إلى الرسم القرآني في هامش ص٣١٣ عندما استشهد بالآية "٣١" من "الإسراء".

- ويبدو تغاير الرسم الإملائي في كلمتي (آسيا، وأستراليا) فبينما ترد الأولى (آسيا) في الصفحات (٢٨-١٠٣(ع١)- ٥٣٠(ع٢)) وغيرها، ترد (آسية) في تعريف (الطورانية) ص٦٥٩. أما (أستراليا) فترسم بالألف في ص٤٧ بينما ترسم بالتاء (أسترالية) في مادة (برقش) ص١٠٣.

- في ص٧٤ ذكر (أوغاريت أو أُجريت). ولا ندري سبباً لحذف الواو، والألف من الرسم الثاني للكلمة إذا كانتا تؤديان نطقاً واحداً!

أشار صاحب المعجم في مقدمته إلى أن مؤلّفه جاء تلبية لحاجة الطالب إلى معجم لغوي يساعده على ضبط الكلم ضبطاً صحيحاً [١٢]. والحق أن ذلك من أولى واجبات معاجم اللغة، كي لا نقرأ اللفظ على غير وجهه، فنقع في التصحيف.

- غير أن المصنّف قيد كلمات لم يشكل حروفها لتؤدي لفظها الصحيح. نورد منها كأمثلة : (الحسكة الحكة) ص٢٤٩ وتُحرك بالفتح (الحسكة) - (سلقين) ص٥١٣ وتُحرك بالكسر (سلقين) - (الطبوغرافيا) ص٦٣٩ لم يبين حركة الطاء فيها وهي الضم - (القنيطرة) ص٨٧٨ لم يبين حركة الطاء فيها وهي الكسر.

- وهنالك كلمات ضبطت بشكل صحيح في موادها الأصلية، لكنها جاءت غير مشكولة في مواضع أخرى، ويستحسن شكلها، نورد منها كأمثلة: (القصدير) الواردة في مادة (بيض) ص١٤٢- (مغنطيسي) في ص٢١٩ مادة

(جول)-(منطقة) في مادة (خرس) ص٣٠٠ - (القرفة) في مادة (صين) ص٦١٦- (الحمص) في مادة (موش) ص١٠١١.

- ومن الألفاظ التي جاء ضبط أحرفها مخلاً بالضبط الصحيح:

(أبلوتون) ص٣١ - (البُروستاتة) ص١٠٠- (البُرنز) و (البُرتستنتية) ص١٠٥- (البُرتين) ص١٠٦- (الجرانيت) ص١٨٧- (جلسرين) ص٢٠١- (الكُروم) ص٩٠٥- (الكُروكي) هامش٢ ص١١٢٥.

والخطأ في لفظ هذه الكلمات المعرّبة- كما وردت- هو أن المؤلف عاملها معاملة الكلمات العربية الفصيحة، فأحجم عن أن يقول "بلوتو-البُروستاتة-البُرونز-الجرانيت-الكُروم-إلخ" لئلا يبدأ بساكن كما هو معروف عند العرب، فلجأ إلى إضافة الهمزة في الكلمة الأولى، وحرك الحروف الأولى من الكلمات الأخرى كي لا يقع في المحظور. ويقول أحمد الخطيب "إن الابتداء بالساكن في كثير من الألفاظ المعرّبة يحتّمه ضبط تأدية المسميات كما يلفظها الناس في معظم أنحاء العالم.. أما إضافة حرف الألف عند تعريب الألفاظ الإفرنجية التي تبدأ بحرف ساكن، أو تحريك الحرف الساكن نفسه، فهما تحريف لامسوّغ له، يبعد منطوق اللفظ عن صورته وبيئته الأصلية". (١٤)

ثالثاً: في رسم الصور والأشكال

وندخل هذا تجاوزاً في باب رسم الكلمات، لما للصورة من علاقة بمعنى اللفظ، وقدرة على توضيح ما تحمله الكلمة من دقة الدلالة وإن كانت عاجزة عن أن تقوم مقامها، لأنها تظل بحاجة إلى التعبير عنها وعن الموجودات جميعها بالكلام المنطوق الذي هو خاصة الإنسان الأولى، والشرط الكافي المرادف للعقل، والذي يظل الإنسان دونه عاجزاً عن اكتساب مهارة التعبير اللغوي.

والحق أن الدعوة إلى توضيح بعض كلمات المعجم بالصور دعوة حديثة "أخذت بها المعاجم الأوروبية، حتى إننا لنجد في الألمانية ما يجعل الصورة أساساً تُرسم في دقة بالغة، ويعطى كل جزء منها رقماً. وتذكر ألفاظ اللغة بعد

ذلك كأنها هوامش على الصورة، ويوضح كل لفظ مقابل رقم جزء الصورة الذي يناسبه"[١٥].

وقد كان (المنجد) أول معجم عربي في العصر الحديث استعان بالصور والأشكال إلى توضيح معاني الألفاظ ومدلولاتها محاكاة للمعاجم الأجنبية. ففي طبعاته الأولى بلغت صوره حوالي الألف[١٦]. أما الآن والطبعة الأخيرة- السابعة والعشرون (١٩٨٤)- بين يدينا، فتزيد الصور فيه على خمسمئة وألفين، إضافة إلى أربعين لوحة ذات موضوعات مختلفة. ثم اتبع هذا التقليد بعض المعاجم العربية الحديثة التي جاءت بعده، منها (المعتمد) لجرجي شاهين عطية[١٧]، وهو مزين بالرسوم والصور التي "تبلغ حوالي ٢٠٩"[١٨]، و (الرائد) لجبران مسعود[١٩]، وهو مزود بما يقدر بسبعمئة صورة، و (المعجم الوسيط)[٢٠] الذي اشتمل في طبعته الثالثة على حوالي ألف صورة. أما (المعجم المدرسي) فقد احتوى على تسع ومائتي صورة.

نحن لا نقول إن أهمية الصور في المعجم تتوقف على عددها، أو إن الهدف من وجودها مجرد التزيين، إنما تعود أهميتها إلى انتقاء ما يتطلبه بعض الألفاظ من توضيح، وإلى النوعية المختارة التي تعبر عن تأدية هذه الصور للغاية التي اختيرت من أجلها.

• لم يخل (المعجم المدرسي) من أخطاء بما عرضه من رسوم وأشكال، منها:

- الصورة التي وضعت للجدجد في ص١٨١ لا تمثل (الجدجد) إنما هي صورة (صرصور) ويجب أن تكون في ص٥٩١.

- في ص٣٣٢ يعرّف الخنفساء: (حشرة سوداء من مغمدات الأجنحة، أصغر من الجعل، منتنة الريح) وهو وصف لا يصح لمفهوم يمثل "جنساً" من الحشرات، ويقوم من جهة أخرى على الخصوصية لبعض "أنواعه". ذلك أن الخنافس متعددة الأنواع، مختلفة الأشكال والألوان[٢١]، وهذا ما يجعل صورة

الخنفساء في الصفحة المقابلة لا فائدة منها في توضيح المعنى، كما أن هذا الشكل المرسوم ليس من الخنافس المنتنة الريح، ولا يبدو أنه أصغر من الجعل، بل هو الجعل نفسه الذي يرد وصفه في ص١٩٧.

- في ص٥٤٢ يصف سمك الشبوط بقوله: (عريض الوسط، دقيق الذنب، صغير الرأس) بينما الصورة الواردة أسفل التعريف لا تدل على هذا الوصف، وهي بعيدة كلياً عن أن تكون لسمك الشبوط.

- في ص ٥٦٦ ورد (الشمروخ) بمعنيين: عنقود العنب وعثكال النخل، وفي الصفحة المقابلة كتب إلى جانب الشكل المرسوم: (الشمروخ). فمعنى ذلك أنه يدل على المعنيين، ولو أضاف إلى هذه الكلمة "عنقوُد عنب" لكان أكثر تحديداً.

- ولوجه الدقة أيضاً يجب إضافة "الصفراء" إلى (الذرة) جانب الشكل في ص٣٨٠، وكتابة "خنزير داجن" إلى جانب الصورة في ص٣٠٤ بدلاً من كلمة (خنزير).

- في ص ٨٣٣ يذكر (القبّان) وفي ص٩٧٦ يذكر (المخل) ويقول إن فصيحه (العتلة) دون أن يعرض صورة لأي منهما. وفي ص٦٧٩ يأتي تعريف (العتلة) مرفقاً برسمي القبّان، والمخل أو (العتلة). والصواب أن يبقى رسم العتلة هنا في ص٦٧٩، وينقل رسم القبّان إلى ص٨٣٣ أو إلى ٤٣٥ تحت كلمة (رمانة القبان).

• وردت صور في المعجم يُشك في أنها تعبّر عن مسمياتها. من ذلك:

- (الخشخاش) ص٣٠٧: ولا فائدة من عرض الصورة المرسومة، لأنها لا تعرفنا بهذا النبات الذي يتميز بأوراقه العريضة وأكوازه البيض.

- (العثة) ص٦٨٠: جاءت الصورة بعيدة كل البعد عما توصف به هذه الحشرة.

- (الهزار) ص١١٠٧: لا يُعرف طائر الهزار بهذا الذيل الطويل الذي يعرضه الرسم.

- عبّر عن شجر الكافور برسم ورقة من شجره ص٩١٢. والحقيقة أن هنالك عدداً من النباتات له شكل هذه الورقة، فنحن لا نستطيع التعرف على شجرة الكافور منها؛ لأننا نكون بذلك كمن يريد أن يتعرف على الكل من أحد أجزائه، مع كون هذا الجزء مشترك مع غيره.

• ورد بعض الرسوم مكرراً دون أن يكون هنالك أي داع لذلك، وهي:

- صورة البأز ص٨٢، وحامل البازي (أو البيزار) ص١٠٧

- صورة البقر الوحشي ص١٢٢، وولد البقرة الوحشية أو (الجؤذر) ص١٧٦

- أنواع الخطوط في الصفحتين ٣١٦ ، ٣١٧

- صورة (المنجا: الأنبة) ص٦٧ و ١٠٠٦ إضافة إلى اختلاف الرسم بين الشكلين.

الهوامش

* (المعجم المدرسي) معجم لغوي صدر عن وزارة التربية في الجمهورية العربية السورية عام ١٤٠٦هـ/١٩٨٥ من تأليف محمد خير أبو حرب، وتدقيق ندوة النوري. وقد ذُكرت في آخر صفحة منه (ص١١٨٤) أسماء عدد من الذين ساهموا في التأليف والتدقيق اللغوي والتصحيح الطباعي والرسم والإشراف الفني.

(١) تمام حسان (اللغة العربية، معناها ومبناها). الدار البيضاء (المغرب)، دار الثقافة، دون تاريخ، ص٣٣٠.

(٢) المرجع السابق، ص١٦٩.

(٣) بلغت عدة المعجم من المواد "٤٦٦٣".

(٤) يعرف تمام حسان "الخوالف" أنها " كلمات تستعمل للكشف عن موقف انفعالي ما والإفصاح عنه، وهي أربعة أنواع: خالفة الإخالة، وخالفة الصوت، وخالفة التعجب، وخالفة المدح". انظر كتابه (م.س) ص١١٣ وما بعده.

(٥) مسألة ترتيب المواد في (المعجم المدرسي) تبحث في موضع اخر من دراستنا الشاملة.

(٦) (المعجم المدرسي) ص٢٦.

(٧) انظر أحمد شفيق الخطيب (معجم المصطلحات العلمية والفنية والهندسية)، مكتبة لبنان ١٩٧١ ص٧٣٩ رقم ٣٥.

(٨) والطريف أن هذا اللفظ يرد منتهياً بـ (يا) في أعلى الصفحة، وبالتاء في التعريف.

(٩) عدنان الخطيب (المعجم العربي بين الماضي والحاضر) معهد البحوث والدراسات العربية التابع لجامعة الدول العربية، القاهرة ١٩٦٧ ص٧٣.

(١٠) هذه الإشارة هنا (–) تدل على أن العد يكون من أسفل الصفحة.

(١١) من الكتب المدرسية المقررة عندنا (في سورية) انظر (النحو والإملاء) للصفين الأول والثاني في دور المعلمين والمعلمات، تعديل قدري الحكيم وندوة النوري، ١٩٨٥–١٩٨٦، فصل (أشهر مواطن الحذف) ص٢٧٧ حيث يقول "تحذف الألف من الكلمات التالية: الإله، السموات...".

(١٢) "يكتب الكوفيون الاسم الثلاثي المقصور إذا كان مضموم الأول أو مكسوره بالياء غير المنقوطة.. والبصيريون بالألف". انظر (م.س.) ص٢٤٥.

فإذا كان المؤلف يتبع رأي الكوفيين، فقد أخطأ هنا في كتابة (الضحا)، وإذا كان يتبع رأي البصريين فقد أخطأ في كتابتها في مادة (ضحو) ص٦٢١ إذ وردت (الضحى).

(١٣) (المعجم المدرسي) المقدمة ص١٧.

(١٤) أحمد شفيق الخطيب (م.س.) ص٧٤٧ بند (١). انظر أيضا مقالته (منهجية وضع المصطلحات الجديدة)، مجلة (شؤون عربية) ع أيلول ١٩٨١ ص١٤٥.

(١٥) محمد أحمد أبو الفرج (المعاجم اللغوية في ضوء دراسات علم اللغة الحديث)، دار النهضة العربية، ط١، ١٩٦٦ ص١٢٣-١٢٤

(١٦) صدرت الطبعة الأولى من (المنجد) للأب لويس معلوف عام ١٩٠٨.

(١٧) صدر (المعتمد) في بيروت عام ١٩٢٧.

(١٨) انظر حكمت كشلى (المعجم العربي في لبنان) ط١، دار ابن خلدون، بيروت ١٩٨٢ ص١٧٩.

(١٩) صدرت الطبعة الأولى من (الرائد) في بيروت عام ١٩٦٥.

(٢٠) أخرج مجمع اللغة العربية في القاهرة (المعجم الوسيط) عام ١٩٦٠.

(٢١) انظر أحمد شفيق الخطيب (موسوعة الطبيعة الميسرة) ط١، مكتبة لبنان ١٩٨٥، ص٤٠.

باء الاستبدال في العربية الفصحى بالمنهج التاريخي

د. عباس علي السوسوة
مدرس علم اللغة بكلية التربية - تعز

من نافلة القول أن للأداة النحوية غير معنى. وباء الجر في العربية الفصحى لها عدة وظائف (معان) اختلف في عددها المؤلفون في حروف المعاني، فالرماني (ت٣٨٤هـ) جعلها ست وظائف[١]، وأوصلها المالقي (ت٧٠٢هـ)[٢] إلى عشر وظائف من بينها البدل، ثم أوصلها المرادي (ت٧٤٩هـ) إلى ثلاثة عشر معنى[٣]. وأوصلها ابن هشام (ت٧٦١هـ) إلى أربعة عشر معنى[٤] لكن هؤلاء العلماء الأجلاء لم يتعرضوا قط للباء الداخلة على الفعل (بدل) وما شابهه من مادته مثل: تبدل، واستبدل، وأبدل، ومصادر هذه الأفعال، فتدخل على المتروك أو المزال أو المستبعد من طرفين اثنين.

أما العلامة محمد عبدالخالق عضيمة فقد أوصل معاني الباء الواردة في القرآن الكريم فقط إلى ثمانية عشر معنى منها البدل[٥]، وهو أن تكون الباء بمعنى (بدل)، لكنه لم يستشهد على ذلك إلا بآية سورة سبأ فحسب[٦]، وأضاف إليها كل آية ورد فيها الفعل (اشترى) أو (شرى) متعلقاً بالباء، فكأنه - باستثناء آية واحدة - قد أتى بما يسمى (باء المقابلة) عند ابن هشام[٧].

ونحن نزعم أن باء الاستبدال التي تدخل على المتروك (المستبعد) قد وردت في القرآن الكريم خمس مرات متعلقة بالفعل (بدل) وما شابهه من أفعال مأخوذة من الجذر (ب د ل)[٨]، وهو ما يهمنا هنا في هذا البحث. وقبل أن نعرض لهذه الآيات الخمس نحب أن نقرر أننا لم نعثر على نص واحد موثوق بصحته ينتمي إلى عصر الاحتجاج باللغة فيه مخالفة لهذه القاعدة. أما بعد عصر الاحتجاج فإننا نجد قاعدة ثانية عكسها تماماً، أي أن الباء أصبحت تدخل على غير المتروك (غير المستبعد) عند كثير من الشعراء والأدباء والمؤلفين في أكثر

الفنون.

وقبل أن نأتي بالشواهد على هذه القاعدة الجديدة، نود أن نعود إلى القاعدة الأصلية لباء الاستبدال التي تدخل على المستبعد في القرآن الكريم، ونرى مواقف المفسرين المشهورين منها:

١- منهم من لم يذكر هذه القاعدة ولم يستعمل في تفسيره الأفعال المذكورة في الآيات الخمس، وهو الزمخشري (ت٥٣٨هـ) والرازي (ت٦٠٦هـ) وبالطبع لا داعي للنقل منهما.

٢- ومنهم من استعمل في تفسيره هذه القاعدة ولكن دون نص عليها أو استشهاد، وهذا موقف الطبري (ت٣١١هـ) والقرطبي (ت٦٧١هـ) وابن كثير (ت٧٧٤هـ).

٣- وهناك من استعمل الباء في تفسيره، وزاد فوضح هذه القاعدة في غير موضع وهو ما فعله أبو حيان الغرناطي (ت٧٤٥هـ)[٩] وأبو السعود العمادي (ت٩٨١هـ).

٤- ومنهم من فسر أربع آيات بما يوافق القاعدة القرآنية تماماً لكنه في تفسيره آية سورة النساء يستعمل القاعدة الجديدة، لا الأصلية. وإليك البيان:

١- في الآية ٦١ من سورة البقرة: (فادع لنا ربك يخرج لنا مما تنبت الأرض من بقلها،وقثائها وفومها وعدسها وبصلها، قال: أتستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير).

قال الطبري: "لا شك أن من استبدل بالمن والسلوى البقل والقثاء والعدس والبصل والثوم، فقد استبدل الوضيع من العيش بالرفيع منه"[١٠].

وقال القرطبي: "أتستبدلون البقل والقثاء والثوم والعدس والبصل الذي هو أدنى بالمن والسلوى الذي هو خير"[١١].

وقال أبو حيان (ج١/ ٢١٨): "التبديل تغيير الشيء بآخر، تقول هذا بـــدل هذا أي عوضه، ويتعدى لاثنين، الثاني أصله حرف جر، بدّلت ديناراً بدرهم، أي جعلت ديناراً بدرهم، أي جعلت ديناراً عوض الدرهم. وقد يتعدى لثلاثة فتقـــول: بدلت زيداً ديناراً بدرهم، أي حصلت له ديناراً عوضاً من درهم.. وقد وهم كثير من الناس فجعلوا ما دخلت عليه الباء هو الحاصل والمنصوب هو الذاهب حتـــى قالوا: ولو أبدل ضاداً بظاء لم تصح صلاته. وصوابه: ولو أبدل ظاء بضاد".

وهنا تلاحظ أن أبا حيان قد جلّى قاعدة باء البدل، وزاد فأوضح تحول هذه القاعدة إلى العكس.

وقال أبو السعود: "... أي بمقابلة ما هو خير، فإن الباء تصحب الذاهـــب الزائل دون الآتي الحاصل كما في التبديل في مثل قوله عز وجل: "ومن يتبـــدل الكفر بالإيمان" وقوله: "وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتي أكل خمط"(١٢).

وقال الشوكاني: "المن والسلوى استبدلوا به البقل وما حكي معه" (١٣).

٢- في الآية ١٠٨ من سورة البقرة (ومن يتبدل الكفر بالإيمان فقد ضـــل سواء السبيل).

قال الطبري: (ج١/ ٤٨٦): "ومن يستبدل بالإيمان بالله ورســـوله الكفـــر، فيرتد عن دينه فقد حاد عن منهج الطريق ووسطه الواضح المسبول".

وقال أبو حيان (ج١/٣٤٧): "تقدم الكلام في التبديل، أي من يأخذ الكفـــر بدل الإيمان" وقال أبو السعود (ج١/١٤٥): ومن يتبدل الكفر، أي: يختره ويأخذه (بالإيمان) بمقابلته بدلاً منه".

وقال الشوكاني (ج١/١٢٩): "يتبدل الشدة بالرخاء".

٣- في الآية الثانية من سورة النساء (وآتوا اليتامى أموالهم، ولا تتبدلـــوا الخبيث بالطيب).

قال الطبري (ج٤/٢٢٨): "ولا تستبدلوا الحرام عليكم من أموالهم بأموالكم الحلال لكم".

وقال القرطبي (ج٥/٩): "لا تتبدلوا الشاة السمينة من مال اليتيم بالهزيلة، ولا الدرهم الطيب بالزيف".

وقال ابن كثير: "لا تتبدلوا الحرام من أموال الناس بالحلال من أموالكم"(١٤).

وقال أبو السعود (ج٢/٢٤٠): "نهي عن أخذ مال اليتيم على الوجه المخصوص بعد النهي الضمني عن أخذه على الإطلاق. وتبدل الشيء بالشيء واستبداله به أخذ الأول بدل الثاني بعد أن كان حاصلاً له أو في شرف الحصول، يستعملان أبداً بإفضائهما إلى الحاصل بأنفسهما، وإلى الزائل بالباء، كما في قوله تعالى: "وبدلناهم بجنتيهم جنتين" إلخ، وأخرى بالعكس كما في قولك: بدلت الحلقة بالخاتم إذا أذبتها، نص عليه الأزهري".

أما أبو حيان فلم يتعرض لهذه الآية ولم يذكر فيها شيئاً (ج٣/١٥٠-١٥٢).

٤- أما الآية ٥٢ من سورة الأحزاب، وهي قوله تعالى: (لا يحل لك النساء من بعد ولا أن تبدل بهن من أزواج) فلا جديد فيها عند الطبري (ج٢٢/٢٩) ولا القرطبي ولا أبو حيان ولا ابن كثير (ج٣/٥٠١) ولا الشوكاني (ج٤/٢٩٦) وقال أبو السعود (ج٧/١١١) فلا بد أن يكون معنى التبدل بهن إحلال نكاح غيرهن بدل إحلال نكاحهن".

٥- الآية ١٦ من سورة سبأ (فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتي أكل خمط وأثل وشيء من سدر قليل).

قال الطبري (ج٢٢/٨١): "وجعلنا لهم مكان بساتينهم من الفواكه والثمار بساتين من جنى ثمر الأراك".

وقال أبو حيان (ج٧/٢٧١): "ودخلت الباء في (بجنتيهم) على الزائل، وانتصب ما كان بدلاً وهو قوله (جنتين) على المعهود في لسان العرب، وإن كان كثيراً لمن ينتمي للعلم يفهم العكس، حتى قال بعضهم: ولو أبدل ضاداً بظاء لم تصح صلاته، وهو خطأ في لسان العرب... وقد تكلمنا على ذلك في البقرة في قوله: "ومن يتبدل الكفر بالإيمان".

ونلاحظ في عبارة أبي حيان خللاً مردّه إلى تحريف الطباعة، صوابه: وإن كان كثيرٌ ممن ينتمي للعلم يفهم العكس، كما نلاحظ أن أبا حيان قد وهم حين أشار إلى أنه تكلم على ذلك في الآية ١٠٨ من البقرة (البحر ج١/٣٤٧) فالواضح أنه تكلم على الباء في الآية ٦١ من البقرة (البحر ج١/٢٨١).

وقال ابن كثير (ج٣/٥٣٣): "فهذا الذي صير تينك الجنتين إليه بعد الثمار النضيجة والمناظر الحسنة والظلال العميقة والأنهار الجارية تبدلت إلى شجر الأراك والطرفاء والسدر ذي الشوك الكثير والثمر القليل، وذلك بسبب كفرهم".

ويقول أبو السعود (ج٧/١٢٨): "أذهبنا جنتيهم وآتيناهم بدلهما جنتين ذواتي أكل خمط، أي ثمر بشع".

وقال الشوكاني (ج٤/٣٢٠-٣٢١): "أهلكنا جنتيهم اللتين كانتا مشتملتين على تلك الفواكه الطيبة والأنواع الحسنة، وأعطيناهم بدلهما جنتين لا خير فيهما ولا فائدة لهم فيما هو نابت فيهما".

وقد أخرنا الموضع الذي احتج فيه الشوكاني لعكس القاعدة بالمعاجم، وذلك عند تفسيره لآية سورة النساء. قال: "ولا تتبدلوا الخبيث بالطيب، نهي لهم عن أن يصنعوا صنع الجاهلية في أموال اليتامى، فإنهم كانوا يأخذون الطيب من أموال اليتامى ويعوضونه بالرديء من أموالهم، ولا يرون بذلك بأساً. وقيل المعنى: لا تأكلوا أموال اليتامى وهي محرمة خبيثة وتدعوا الطيب من أموالكم.. فإن تبدل الشيء بالشيء أخذه مكانه. وكذلك استبداله، ومنه قوله تعالى: "ومن يتبدل الكفر بالإيمان فقد ضل سواء السبيل" وقوله "أتستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير".

وأما التبديل فقد يستعمل كذلك كما في قوله "وبدلناهم بجنتيهم جنتين" وأخرى بالعكس كما في قولك بدلت الحلقة بالخاتم: إذا أذبتها وجعلتها خاتماً. نص عليه الأزهري"[١٥]. ويلاحظ هنا استفادة الشوكاني من أبي السعود، وكلاهما ناقل إما عن الأزهري[١٦] مباشرة أو بالوساطة عن طريق اللسان.

وجاء في اللسان "تبدل الشيء وتبدل به واستبدل الشيء واستبدل به: كله اتخذ منه بدلاً.. واستبدل الشيء بغيره وتبدله به إذا أخذه مكانه.. أبو العباس ثعلب: يقال: أبدلت الخاتم بالحلقة إذا نحيت هذا وجعلت هذا مكانه (هكذا؟). وبدلت الخاتم بالحلقة إذا أذبته وسويته حلقة. وبدلت الحلقة بالخاتم إذا أذبتها وسويتها خاتماً"[١٧].

فالقسم الأول من هذا النص يجعل الباء داخلة على المتروك، والقسم الثاني منه ينقل عن ثعلب إجازته دخول الباء على غير المتروك مؤيداً بثلاث جمل، وإن كانت الباء تحمل معنى التحول لا الاستبعاد. وهذا ما جعل مجمع اللغة العربية في القاهرة يجيز دخول (باء البدل) على المتروك، أو على المأخوذ، والمدار في تعيين ذلك على السياق، مستشهداً للقاعدة الجديدة بما ورد في (تاج العروس)[١٨] منسوباً إلى ثعلب، وبقول طفيل الخيل لما أسلم:

وبدل طالعي نحسي بسعد[١٩]

وإذا تركنا المفسرين إلى مؤلفي كتب إعراب القرآن، لوجدناهم غير مهتمين بهذه القاعدة، فالفراء (ت٢٠٧هـ) لم يتطرق إلى وظيفة هذه الباء، ولا استعملها في كلامه، بل إنه انصرف إلى تفسير أشياء أخرى في الآيات[٢٠]. وابن الأنباري (ت٥٧١هـ) صنع الشيء نفسه[٢١]. والعكبري (ت٦١٦هـ) سلك المسلك نفسه[٢٢]، لكنه – للعجب – تحدث بوضوح شديد عن هذه الباء مستشهداً لها. ولكن ليس في مواضعها بل في الآية ٥٩ من البقرة التي لا باء داخلة على المتروك فيها، قال تعالى "فبدل الذين ظلموا قولاً غير الذي قيل لهم". قال العكبري: "فبدل الذين ظلموا بالذي قيل لهم قولاً غير الذي قيل لهم"، فبدل يتعدى إلى مفعول واحد بنفسه، وإلى آخر بالباء، والذي مع الباء يكون هو المتروك،

والذي بغير باء هو الموجود كقول أبي النجم:

وبُدِّلَتْ والدهرُ ذو تبدل هيفاً دبوراً بالصَّبا والشمالِ

فالذي انقطع عنها (الصبا) والذي صار لها (الهيف) فكذلك ها هنا"[٢٣].

ونحن ليس من همنا هنا إجازة تعبير معين، ولا تحريم أسلوب بعينه، بل يهمنا تتبع هذه الظاهرة، ظاهرة دخول باء الاستبدال على غير المتروك، تاريخياً.

فنجد عند الجاحظ (ت٢٥٥هـ) هذا النص "وإذا كان موضع الحديث على أنه مضحك مُلِه، وداخل في باب المزاح الطيب، فاستعملت فيه الإعراب، انقلب عن جهته، وإن كان في لفظه سُخفٌ وأبدلت السخافة بالجزالة، صار الحديث الذي وضع على أن يسر النفوس يكربها ويأخذ بأكظامها"[٢٤].

ولا شك أن السخافة هنا ليست المستبعدة.

وأبو تمام الطائي يسير في ديوانه كله على القاعدة القديمة في هذا الأمر، إلا في موضع واحد، هو:

"بُدِّلْتَ بعد تأنُّسٍ بتوحُّش وأعرتَ سمعكَ من يبلِّغ أو يشي
وزعمتَ أني ذاهل، فمن الذي يدعى خليفة عُروة ومرقش
لا مُتَّ إن كان الذي بلَّغتَه حتى أرى في صورة ابن الأعمشِ"[٢٥]

ونجد هذه القاعدة الجديدة في شعر المتنبي (ت٣٥٤هـ) في مدح كافور الإخشيدي:

"من لبيضِ الملسوك أن تبدل اللو ن بلون الأستاذ والسحناء"[٢٦]

والمقام هنا مقام مدح، ولون الأستاذ الذي تتمنى الملوك أن يكون لونها هو الأسود؛ فهو المطلوب لا المتروك. والعجيب أن هذا الاستعمال المخالف للاستعمال القرآني لم يلفت أنظار الذين عابوا شعر المتنبي من القدماء؛ أمثال: الصاحب بن عباد والعميدي والحاتمي، كما لم يلفت أنظار محبي الشاعر، أمثال ابن جني والمعري، وكذا المتوسطين بين هؤلاء وأولئك مثل القاضي الجرجاني والبديعي. بل إن المحدثين الذين تناولوا شعره بالنقد والشرح لم يلتفتوا إلى ذلك، مثل: عبد الوهاب عزام وطه حسين ومحمود محمد شاكر. زد على ذلك أن بعض الرسائل العلمية الجامعية التي ركزت على جانب الاستعمال اللغوي عند المتنبي لم تلتفت إلى ذلك قط[٢٧].

وإذا فتشنا في الكتب التي اهتمت بشرح ديوان الشاعر الذي ملأ الدنيا وشغل الناس وجدناها تمر على هذا البيت وما فيه بهدوء شديد دون تخطئة لهذا الاستعمال؛ بل إنها تنثر البيت وتستخدم الأسلوب الجديد نفسه؛ فتدخل الباء على غير المتروك. فها هو المعري يقول: "إن البيض يتمنون أن يستبدلوا ألوانهم بلونه، ويغيروا هيئتهم بهيئته، ولكن أين لهم ذلك"[٢٨]. وفي موضع قريب يقول: "إن الملوك البيض يتمنون أن يستبدلوا ألوانهم بلونه، ليراهم الأبطال الذين هم أهل الحروب بالعيون التي رأوا بها كافوراً في الحرب"[٢٩].

ويكرر الظاهرة في مكان آخر فيقول شارحاً: "كنت تنزع كل يوم حلة للسؤال، وتلبس حلة جديدة، فكيف رضيت الآن بحلة لا تنزعها أبداً، ولا تبدلها بغيرها"[٣٠]. ولا شك أن غيرها هو الجديد لا المستبعد. وفي شرح بيت يسير عليه الشاعر على النهج القرآني، نجد الشارح يضطرب في شرحه؛ ففي أول شرحه يدخل الباء على غير المتروك وفي آخر شرحه يسير على القاعدة القديمة:

"إذا المنايا بدت فدعوتها أُبدل نونا بداله الحائدْ"

الحائد إذا أبدل داله بالنون فهو الحائن، أي الهالك.. إذا ظهرت المنية في الحرب فدعوة المنايا أن تقول أبدل الله تعالى الحائد نوناً بدال"[٣١].

والواحدي (ت٤٦٨هـ) يشرح البيت بقوله: "الملوك البيض يتمنون أن يبدلوا ألوانهم بلونك، وأن تكون هيئتهم في اللون كهيئتك"[٣٢].

وفي القرن الرابع الهجري نجد هذه الظاهرة عند الشاعر عبدالله بن جعفر السمرقندي في قصيدة قالها بعد أن فتح الفاطميون مصر:

"فقل لبني العباس: شيموا سيوفكم فقدماً عصيتم ربكم بصدورها
وليتم أمور الناس شر ولاية فبدلتم معروفها بنكيرها"[٣٣]

ونجد هذه الظاهرة لدى المحسّن التنوخي (ت٣٨٤هـ) عنواناً لباب في أحد كتبه "الباب الثاني عشر فيمن ألجأه الخوف إلى الهروب واستتار فأبدل بأمن ومستجدّ نعم ومسارّ"[٣٤].

ونجدها في شعر محمد بن هانئ الأندلسي (ت٣٩٢هـ) "في هجاء شخص يعرف بابن أبي زمّور، وكان حشاشاً فعاد سقاءً:

تبدّل من جام الكنيف بقربة وكان طعامياً فعاد شرابيّا"[٣٥]

وفي القرن الخامس الهجري نجدها في شعر الشريف الرضي (ت٤٠٦هـ):

"ضحا اليوم عن ظل الشبيبة مفرقي وأبدل مُسود العذار بمُبيضّ"[٣٦]

كما نجدها عند القاضي عبدالجبار الأسد أباذي المعتزلي (ت٤١٥هـ): "ولذلك يصح منهما نقض هذه المواضعة، وتبديلها بأخرى. وذلك يبين أن ما تواضعوا عليه إنما يثبت مع بقاء حكم المواضعة"[٣٧].

ثم نجدها في نثر الوزير الآبي (ت٤٢١هـ): "رأيت صبيّة قد وقفت على

بقّال بالكوفة، وأخرجت إليه رغيف شعير وقالت له: قالت أختي: أبدلْ هذا الرغيف بالكسر، وأعطها بصرفه جزراً"[٣٨].

ونجدها عند علي بن خلف الكاتب (ت٤٣٧هـ): "ولمّا كانت الطباع الفاضلة تواقع الصواب وتباين الخطأ، وتقوى على نظم المعنى الذي تحتاج إلى إبرازه مؤلفاً تأليفاً حسناً في أكثر الأحوال، عُني صرفها عمّا يسرت له إلى إلزامها أعظم مشقة، وتبديلها من الأسهل بالأصعب ومن الأرفه بالمُتعب"[٣٩].

وفي القرن السادس نجدها عند الفتح بن خاقان (ت٥٢٨هـ) في أثناء قصة لأحد القضاة مع معتوه كان قد منحه دجاجة، فأوهمه أحد المتنادرين أنها مغربلة (=رديئة) "فرجع إليه المعتوه بها، وأصابه في جماعة وقال له: يا قاضي، هذه الدجاجة مغربلة فأبدلها لي بسمينة... فأمر فأبدلت له بأخرى"[٤٠].

ثم نجدها عند ابن عساكر (ت٥٧١هـ): "لا تستبدلن صديقاً قديماً بصديق حديث، فإنه لا ينصحك"[٤١].

وتكثر هذه الظاهرة لدى كتاب القرن السابع، فنحن نجدها عند الرازي (ت٦٠٦هـ): "أجمعنا على أنه لا يجوز إبدال الركوع والسجود بغيرهما، فوجب أن لا يجوز إبدال قراءة الفاتحة بغيرها، والجامع رعاية الاحتياط"[٤٢].

ونجدها في شعر الوزغي (ت٦١٠هـ) الذي ترك النصرانية وأسلم قائلاً:

تبدّلت من عيسى بحب محمد هديت، ولولا الله ما كنت أهتدي
وما عن ملال كان ذاك وإنما شريعة عيسى عُطلت بمحمد"[٤٣]

ثم نجدها عند الأزدي (ت٦١٦هـ) يروي حكاية حدثت عام ٦٠٣هـ، يقول في ختامها: "وأبدى من جميله ما أبدلني بالنفاق بعد الكساد"[٤٤].

ونجدها عند عبداللطيف البغدادي (ت٦٢٩هـ) يصف المجاعة التي

حصلت في مصر في أثناء رحلته إليها:

"ولكن بُدلت البلاد بالذئاب والضباع ترتع في لحوم أهلها"[٤٥]

ونجدها عند ابن الأثير (ت٦٣٧هـ) ينثر بيت أبي تمام المشهور:

"تردّى ثياب الموت حُمراً فما دجى لها الليل إلاّ وهي من سندس خُضرُ"

يقول: "وأما بيت أبي تمام فإني قلت في نثره: لم تكسه المنايا نسج شفارها، حتى كسته الجنة نسج شعارها. فبدل أحمر ثوبه بأخضره، وكأس حمامه بكوثره"[٤٦].

ونجدها عند ابن أبي الحديد (ت٦٥٦هـ). في أثناء حكاية رواها: "فجاء الجار بالدراهم الزائفة فدفعها إلى الولد فلم يقبلها، فأبدلها بدراهم جيدة"[٤٧].

وفي موضع آخر من شرح النهج يذكر بعض العادات المنتشرة بين الناس، ومنها: "أن الغلام إذا سقطت له سن أخذها بين السبابة والإبهام، واستقبل الشمس إذا طلعت، وقذف بها وقال: أبدليني بسن أحسن منها"[٤٨].

ونجدها عند ابن المُنيَر الإسكندري (ت٦٨٣هـ) في حاشيته على الكشاف للزمخشري يقول: "وتحريفها: تبديلها، كتبديلهم الرجم بالجلد"[٤٩].

وفي موضع آخر يفسر الزمخشري معنى قوله تعالى "يد الله فوق أيديهم" بقوله: "على طريق التخييل فقال (يد الله فوق أيديهم) يريد أن يد رسول الله التي تعلو أيدي المبايعين هي يد الله، والله تعالى منزه عن الجوارح وعن صفات الأجسام. وإنما المعنى تقرير أن عقد الميثاق كعقده مع الله من غير تفاوت بينهما كقوله تعالى "من يطع الرسول فقد أطاع الله".

فيعقب ابن المُنير بقوله: "كلام حسن بعد إسقاط لفظ التخييل وإبداله

بالتمثيل"[٥٠].

وفي القرن الثامن نجدها في شعر ابن دانيال الكحّال (ت٧١٠هـ): قال لابن الكويك التاجر:

قد كان رسمي منك شاش، وقد بدلت ذاك الشاش بالنطع

وكتب إلى نور الدين وهو أرمد:

كتبتُ ولحظي قد تبدل نرجساً بورد، ودمعي قد تساقط منثورا"[٥١]

والمعلوم أن العيون تشبّه بالنرجس، أما الأرمد فتحمر عيناه فتصبحان كالورد.

وهذه الظاهرة تقابلنا كثيراً في شعر صفي الدين الحلي (ت٧٥٠هـ) في موضوعات مختلفة، ففي وصف تأثير الخمر يقول:

"لو حساً ابن التسعين منها ثلاثاً أبدلت قوس قدّه بقناة"[٥٢]

ويقول بعد أن عزل شمس الدين بن كبش من ولاية طريق خراسان، ورُتّب مكانه نجيب الدين بن ذئب:

"بشمس الدين لم تطق الرعايا فكيف وقد تبدّل بالنجيب
رعايا ما أطاقوا بأس كبش محالٌ أن يطيقوا بأس ذيب"[٥٣]

وعن الصداقة يقول:

"إن الصديـــــق إذا رآك مخالفـــــاً لهـــواه، بـــدّل ودّه بعقـــــوق"[٥٤]

وعن امرأة تتحدث عن شيبه:

"تقـــول لمّـــــا أن رأت لمتـــــي محفوفـــة بالشـــــعر الأشـــيب
بدلـــت مـــن مســـكك كـــافورة فقلـــت بـــل بـــالعنبر الأشـــهب"[٥٥]

وأحد مؤرخي القرن الثامن (٨٠٧هـ) يذكر في حوادث ٦٩٥هـ حكايـــة مطولة عن ثور تكلم قبل أن يموت، فقال "... فأجابه الثور: الله عز وجل كان قد كتب على الأمة سبع سنين جدباً، ولكن لشفاعة النبي صلى الله عليه وسلم أبدلها الله تعالى بالخصب"[٥٦].

ونجد الظاهرة في شعر قيل حول حادثة حدثت سنة ٧٨٣هـ، وينقل ابـــن حجر في الإنباء قائلاً: "وفيها قبض على سيف المقدم.. واستقر عوضـــه أحمـــد العظمة، فقال الشاعر:

مضـــــى المقـــــدم ســـــيف بنغمـــــــة وبتُهمـــــــــه
وكـــــان لحمـــــا ســـــميناً فـــــأبدلوه بعظمـــــــه"[٥٧]

ونجدها عند ابن خلدون (ت٨٠٨هـ) في تاريخه؛ فهو يتحدث عن بربـــر هوّارة واختلاطهم ببني سليم وأنهم "قد نسوا رطانة البربر واستبدلوها بفصاحـــة العرب، فلا يكاد يفرق بينهم"[٥٨].

وفي موضع آخر يتحدث عن أمراء معزولين فيقول: "فقدم عوضـــاً عنـــه عمه منديل، ثم استبدل منهم أجمعين بـــأولاد يوســـف، فشـــمروا فـــي طاعتـــه فأبلوا"[٥٩].

وفي القرن التاسع نجدها عند الشريف الجرجاني (ت٨١٦هـ): "كيمياء العوام: استبدال المتاع الأخروي بالحطام الفاني"[٦٠].

ونجدها عند ابن المرتضى (ت٨٤٠هـ): "لأن معنى اللوح المحفوظ معروف يتمكن من تبديله بمثله"[٦١].

ونجدها عند المقريزي (ت٨٥٤هـ): "ألزم بعض أمراء الدولة قاضي القضاة شرف الدين بن منصور الحنفي أن يحكم له باستبدال بعض الدور الموقوفة بملك أحسن منه"[٦٢].

ثم نجدها عند ابن تغري بردي (ت٨٧٤هـ) كثيرة:

- "استبدل السلطان خان الزكاة من ذرية الملك الناصر محمد بن قلاوون بقطعة أرض"[٦٣].

- "وكان يلثغ بالجيم فيجعلها زايا... وهو يبدل الجيم بالزاي فتضحك الناس من ذلك"[٦٤].

- "وكان علي السلاخوري يبدل القاف بالهمزة كما هي عادة أوباش الناس من العامة"[٦٥].

- "وأقبل على العدل وإرداع (!) المفسدين، فبدل الجور بالعدل، والخوف بالأمن"[٦٦].

ثم نجد الظاهرة عند الكفوي (ت١٠٩٤هـ) في كلياته: "والإرداف هو عبارة عن تبديل كلمة بردفها من غير انتقال من لازم إلى ملزوم"[٦٧].

والكفوي هنا يخالف القاعدة التي ذكرها في بداية كتابه عندما قال: "والإبدال والتبدل إذا استعملا بالباء نحو (أبدل الخبيث بالطيب) و(تبدل به) فلا تدخل الباء حينئذ إلا على المتروك. والتبديل مثلهما"[٦٨].

ونجدها في القرن الثاني عشر الهجري عند الحيمي (ت١١٥١هـ)، في قصيدة لمعاصره الحسين بن الحسن العوامي كتبها إلى الحسين الأخفش، قال:

فلا زال كهفاً للعلوم وأهلها فوجدانه باليُسر قد بُدل العسرا"[٦٩]

وهي موجودة في ترجمة معاصره محمد بن أحمد المفضّل: "ولمّا قلب الدهر ظهر المجن، وبدّل أيام المسرة بالشجن. ضاق به العيش، وطاش عقله أي طيش"[٧٠].

وتستمر هذه الظاهرة في العربية المكتوبة، فنجدها عند الشوكاني (ت١٢٥٠هـ) في ترجمة ابن بريدة من رجال القرن التاسع: "لا جرم قد أبدله الله بسلطان خير من سلطانه، وجيران أفضل من جيرانه، ورزق أوسع مما منعوه، وجاه أرفع مما حسدوه عليه"[٧١].

ونجد هذه الظاهرة بعد نحو قرن عند الشيخ محمد عبده، في مقال نشر في ١٨٨١/٥/١١م، يقول فيه: "فمن كانت رغبته متجهة إلى كتب أبو زيد وما معها من الكتب؛ كعنترة عبس وغيرها، أن يستبدلها بكتب التاريخ الصحيحة، كتاريخ المسعودي وتاريخ إظهار أنوار الجليل لحضرة رفاعة بك، وتاريخ الكامل لابن الأثير"[٧٢].

ثم نجدها في تعليقات المرصفي على حماسة أبي تمام، حين يقول عنه إنه "كثيراً ما كان يعتمد على ذوقه، فأحياناً يقدم ويؤخر في أبياته، وأحياناً يبدل بعض كلمات العرب بكلماته"[٧٣].

وسيطول بنا الوقت لو أخذنا نتتبع هذه الظاهرة في العربية الفصحى المعاصرة، التي أصبحت فيها الباء تدخل على غير المتروك بصفة عامة؛ إلا عند أفراد معدودين من ذوي الثقافة اللغوية الواسعة، أو عند من اطلع على شيء من كتب التصحيح اللغوي واقتنع – بعد عرض الشواهد القرآنية – أن باء

الاستبدال تدخل على المتروك (= المستبعد، والمزال).

ونظن أن سيطرة القاعدة الجديدة/ القديمة للباء ترجع إلى أن الذهن يريد أن يبدل شيئاً بشيء، فأول ما يرد إلى الذهن هو المستبعد ثم يليه المطلوب الذي تتعلق به الباء.

ونختتم تتبعنا لهذه الظاهرة لأربعة أدباء راحلين، بادئين بأمير الشعراء (ت١٩٣٢م):

"أنا من بدّل بالكتب الصحابا لم أجد لي وافياً إلا الكتابا"(٧٤)

ونثني بجبران خليل جبران (ت١٩٣٢م) في مقال له نشر في مجلة الهلال القاهرية عام ١٩٢٣م. يقول: "فالتشويش في شرعي ينفع دائماً، لأنه يبين ما كان خافياً في روح الأمة، ويبدل نشوتها بالصحو، وغيبوبتها باليقظة،... ولكنه لا ولن يبدل مللها بالوجد وضجرها بالحماسة... ولا يتم هذا حتى نستبدل خبز الصدقة بخبز معجون في بيتنا، لأن المتسول المحتاج لا يستطيع أن يشترط على المتصدق الأريحي"(٧٥).

ونثلث بمارون عبود (ت١٩٦٢م) فنجدها في حديثه عن الفلاح الذي أصبح جندياً. "ها هو يستبدل المسّاس بالطبنجة، والسيف والغدّارة والقرابية، وجراب البذور يصبح كنانة الفلاح البطل"(٧٦).

ونجدها - في ختام كلامنا - لدى عمر فاخوري (ت١٩٦٤م) عندما تحدث عن بيت شعر للمتنبي، فانتقد النحاة والبيانيين، لأنهم لم يقفوا عند هذا البيت "حين لم تستوقفهم فيه نادرة نحوية أو لغوية، ولا مسألة صرفية أو بيانية، مما جرت عليه العادة أن يعيروه نظراً واهتماماً، حتى ولا لفظة غريبة يتكلفون مشقة إبدالها بلفظة أخرى تكون أقرب تناولاً وأكثر تداولاً"(٧٧).

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

المراجع والإحالات والحواشي

(١) علي بن عيسى الرماني: معاني الحروف، تح عبدالفتاح إسماعيل شلبي، القاهرة: نهضة مصر ١٩٧٣م، ص٣٦-٤٠.

(٢) أحمد بن عبدالنور المالقي: رصف المباني في شرح حروف المعاني، تحقيق أحمد محمد الخراط، مجمع اللغة العربية، دمشق ١٩٧٥م، ص١٤٣-١٤٧.

(٣) حسن بن قاسم المرادي: الجنى الداني في حروف المعاني، تحقيق طه محسن، جامعة بغداد ١٩٧٧م، ص١٠٢-١٠٨.

(٤) جمال الدين بن هشام الأنصاري: مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، تحقيق مازن المبارك ومحمد علي حمد الله، دمشق: دار الفكر ١٩٦٤ ج١/١٠٦-١٠٧.

(٥) محمد عبدالخالق عضيمة: دراسات لأسلوب القرآن الكريم، القاهرة: ط حسان ١٩٧٥م، ق١ ج٢، ص٣-٥٧.

(٦) محمد عبدالخالق عضيمة: دراسات، ق١ ج٢، ص١٥.

(٧) ابن هشام: مغني اللبيب، ج١/ ١١٠.

(٨) في ورود هذا الفعل في القران الكريم بالباء وبدونه، راجع: محمد فؤاد عبدالباقي: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن، القاهرة: دار الكتب المصرية ١٩٣٩م، ص١١٥-١١٦.

(٩) أبو حيان، محمد بن يوسف الغرناطي: تفسير البحر المحيط، القاهرة ط السعادة، ١٣٢٨هـ.

(١٠) محمد بن جرير الطبري: جامع البيان عن تأويل أي القرآن، القاهرة: ط مصطفى الحلبي ١٩٥٤ ج١/ ٣١٢.

(١١) محمد بن أحمد القرطبي: الجامع لأحكام القرآن الكريم، تصحيح أحمد عبدالعليم البردوني وإبراهيم أطفيش، القاهرة دار الكتب المصرية ٥٢- ١٩٥٧م، ج١/٤٢٨.

(١٢) أبو السعود محمد بن محمد العمادي الحنفي: تفسيره المسمى إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، بيروت: دار إحياء التراث العربي، ج١/ ١٠٧.

(١٣) محمد بن علي الشوكاني: فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، القاهرة: ط عيسى الحلبي ١٩٦١م، ج١/ ٩٣.

(١٤) عماد الدين، أبو الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي: تفسير القرآن العظيم، بيروت: دار المعرفة ١٩٦٩م، ج١/٤٤٩. لم ترد الباء ولا الفعل في كلامه في الموضوعين السابقين، انظر ج١/١٠١-١٠٢ و١٥٢-١٥٣.

(١٥) الشوكاني ج١/١٤٩.

(١٦) أبو منصور محمد بن أحمد الأزهري: تهذيب اللغة، مادة (بدل) ج١٤ (تحقيق يعقوب عبدالنبي، الدار المصرية للتأليف والترجمة والنشر، القاهرة ١٩٦٧م)، ص١٣٢.

(١٧) محمد بن مكرم بن منظور: لسان العرب، تحقيق عبدالله علي الكبير ومحمد أحمد حسب الله وهاشم محمد الشاذلي، دار المعارف بالقاهرة ٧٧-١٩٨١م، مادة (بدل) ص٢٣١ وقارن بالمادة نفسها في المصباح المنير للفيومي.

(١٨) محمد مرتضى الزبيدي: تاج العروس شرح جواهر القاموس، القاهرة: ط الخيرية ١٣٠٥-١٣٠٧هـ مادة (بدل) ج٧/٢٢٣.

(١٩) مجمع اللغة العربية، القاهرة: كتاب الألفاظ والأساليب ج١/٣٧.

(٢٠) يحيى بن زياد الفراء: معاني القرآن، تحقيق أحمد يوسف نجاتي ومحمد علي النجار وعبدالفتاح إسماعيل شلبي، ط٢ الهيئة المصرية العامة للكتاب ٧٢-١٩٨٠م، ج١/٤٢، ٨٣ وج٢/٤٣٦، ٣٥٨-٣٥٩.

(٢١) أبو البركات عبدالرحمن الأنباري: البيان في غريب إعراب القران، تحقيق طه عبدالحميد، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، ٦٩- ١٩٧٠م، ج١/ ٨٦، ٨٧، ١١٧، ٢٤٠، ٢٤١ وج٢/٢٧٢، ٢٧٩.

(٢٢) أبو البقاء عبدالله الحسين العكبري: التبيان في إعراب القران تحقيق علي محمد البجاوي القاهرة: ط مصطفى الحلبي ١٩٧٥م، ج١/ ٦٨، ٦٩، ١٠٤، ٣٢٧ وج٢/ ١٠٥٩-١٠٦٠، ١٠٦٦-١٠٦٧.

(٢٣) العكبري: التبيان ج١/٦٦-٦٧ وقول أبي النجم غير منسوب في اللسان (بدل) ص٢٣٢ وفيه (فبدلت).

(٢٤) الجاحظ: الحيوان، تح عبدالسلام هارون، القاهرة: ط مصطفى الحلبي ١٩٦٥م، ج٣/ ٣٩.

(٢٥) ديوان أبي تمام الطائي بشرح الخطيب التبريزي، تح محمد عبده عزام، القاهرة: دار المعارف ١٩٨٠م، ج٤/٣٨٨.

(٢٦) ديوان المتنبي: العرف الطيب في شرح ديوان أبي الطيب لناصيف اليازجي، بيروت ١٨٨٨م، ص٤٧٩.

(٢٧) من ذلك: (أ) محمد عزت عبد الموجود: الظواهر اللغوية والنحوية في شعر أبي الطيب المتنبي، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الأداب، جامعة القاهرة ١٩٤٣م.

(ب) علي محمد علي فاخر: الأخطاء النحوية والصرفية في شعر المتنبي، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية اللغة العربية، جامعة الأزهر، القاهرة ١٩٧٩م.

(٢٨) أبو العلاء المعري: معجز أحمد، شرح ديوان أبي الطيب المتنبي، تح عبدالحميد دياب، القاهرة: دار المعارف ٨٦-١٩٨٨م، ج٤/٣٩.

(٢٩) المعري: معجز أحمد، ج٤/٤٠ وانظر شرح البرقوقي ١/١٥٩ (مصورة) دار الكتاب العربي، بيروت. د. ت.

(٣٠) معجز أحمد ج٤/٢٢٥.

(٣١) معجز أحمد ج٤/٣٨٥.

(٣٢) ابن المستوفي الإربلي: النظام في شرح شعر المتنبي وأبي تمام، تح خلف رشيد نعمان، بغداد: دار الشؤون الثقافية ١٩٨٨م ج١/٤٤٦.

(٣٣) محمد اليعلاوي (محقق): الأدب بإفريقية في العهد الفاطمي (٢٩٦-٣٩٥) بيروت: الغرب الإسلامي ١٩٨٦م، ص٣٤٦.

(٣٤) القاضي المحسن بن علي التنوخي: الفرج بعد الشدّة، تح عبود الشالجي، بيروت: دار صادر ١٩٧٨م، ج٤/٢٦٨.

(٣٥) محمد اليعلاوي: الأدب بإفريقية، ص٣٣٤ والحشّاش: الذي يفرغ المراحيض بعد امتلائها.

(٣٦) ديوان الشريف الرضي، صنعة أبي حكيم الخبري، تح عبدالفتاح محمد الحلو، بغداد: وزارة الإعلام ١٩٧٩م ج٢/٣٥.

(٣٧) القاضي عبدالجبار بن أحمد الهمذاني: المغني في أبواب العدل والتوحيد، ج٥ تحقيق محمود محمد الخضيري ص١٦ (وزارة الثقافة والإرشاد القومي، القاهرة ١٩٦٥م).

(٣٨) أبو سعد منصور بن الحسين الآبي: نثر الدر، تح محمد علي قرنة، الهيئة المصرية للكتاب بالقاهرة ٨١-١٩٨٤م ج٣/٢٨١. والصرف: الفرق بين الدرهم والدينار، انظر لسان العرب (صرف) ص٢٤٣٥.

(٣٩) علي بن خلف الكاتب: مواد البيان، تح حاتم صالح الضامن، مجلة المورد بغداد ١٩٨٨م، مج ج٢/١٤٢.

(٤٠) الفتح بن خاقان الأندلسي: مطمح الأنفس ومسرح التأنس في ملح أهل الأندلس، تح هدى شوكة بهنام، بيروت: دار الغصون ١٩٨٩م ص٩٣.

(٤١) ابن عساكر: تاريخ مدينة دمشق (تراجم حرف العين المتلوة بالألف من عاصم إلى عايذ الله) تح شكري فيصل، مجمع اللغة العربية بدمشق ١٣٩٧هـ، ص٢٢٨.

(٤٢) فخر الدين الرازي: التفسير الكبير، بعناية محمد إسماعيل الصاوي، القاهرة: ط البهية ١٣٥٧هـ، ج١/١٩٣.

(٤٣) ابن سعيد المغربي: المغرب في حلي المغرب، تح شوقي ضيف، القاهرة: دار المعارف ١٩٦٤هـ، ج١/٢٢٠.

(٤٤) علي بن ظافر الأزدي: بدائع البدائه، تح محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٧٠، ص٣٢٥.

(٤٥) عبداللطيف البغدادي: كتاب الإفادة والاعتبار، تح أحمد غسان سبانو، دمشق: مكتبة أسامة ١٩٨٢م، ص٩٢.

(٤٦) ضياء الدين نصر الله بن محمد الأثير: المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تح أحمد الحوفي وبدوي طبانة، القاهرة نهضة مصر ١٩٧٣م، ج١/١٠٧.

(٤٧) عزالدين عبدالحميد بن أبي الحديد المدائني: شرح نهج البلاغة، تح محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة: ط عيسى الحلبي ٦٥-١٩٦٧م، ج١١/٢٢٠.

(٤٨) شرح نهج البلاغة ج١٩/٣٩٧.

(٤٩) أحمد بن محمد المنير الإسكندري: الانتصاف فيما تضمنه الكشاف من الاعتزال (على حاشية الكشاف للزمخشري) مصور دار المعرفة، بيروت، د. ت، ج١/٥١٣.

(٥٠) الانتصاف (على حاشية الكشاف للزمخشري) ط٣، القاهرة: ط مصطفى الحلبي ١٩٦٦م، ج٣/٥٤٣.

(٥١) محمد بن دانيال الموصلي: المختار من شعر بن دانيال، اختيار صلاح الدين الصفدي، تح محمد نايف الدليمي، الموصل: مكتبة بسام ١٩٧٩م، ص١٢٣، ص١٣٤، وفي شاهد اخر ص١٢١ من "شرح المضنون به على غير أهله" لعبيد الله بن عبدالكافي، أتمه عام ٧٢٤هـ، ط القاهرة ١٩١٣م.

(٥٢) ديوان صفي الدين الحلبي، دار صادر، بيروت ص٥١٦.

(٥٣) ديوان الحلي، ص٦٣٥.

(٥٤) ديوان الحلي، ص٦٥٤.

(٥٥) ديوان الحلي، ص٦٧٧.

(٥٦) تاريخ محمد بن عبدالرحيم بن الفرات، تح قسطنطين زريق ونجلاء عزالدين، بيروت: الجامعة الأمريكية ١٩٣٩م، ج٨/٢٠٣.

(٥٧) أحمد بن محمد بن حجر العسقلاني: إنباء الغمر بأنباء العمر، حيدر أباد الدكن: جمعية دائرة المعارف العثمانية ٦٧-١٩٧٦م، ج٢/٤٣.

(٥٨) عبدالرحمن بن خلدون: كتاب العبر، القاهرة: دار الطباعة الخديوية ١٢٤٨هـ، ج٦/٢٨٨.

(٥٩) كتاب العبر ج٦/١٤٩. وانظر أمثلة أخرى في ج٦/٢٠٥، ج٧/٧.

(٦٠) الشريف الجرجاني: التعريفات، بغداد: دار الشئون الثقافية ١٤٠٦هـ، ص١٠٦.

(٦١) محمد بن إبراهيم بن علي المرتضى اليماني: إيثار الحق على الخلق، بيروت: دار الكتب العلمية، د. ت، ص١٣٤.

(٦٢) تقي الدين المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، تح سعيد عبدالفتاح عاشور، القاهرة: دار الكتب المصرية ١٩٥٠م، ج٣ ق١ ص٢٦٩.

(٦٣) ابن تغري بردى: النجوم الزاهرة، القاهرة: دار الكتب المصرية ١٩٥٠م، ج١١/٢٣٩.

(٦٤) النجوم الزاهرة، تح فهيم محمد شلتوت، القاهرة الهيئة المصرية العامة للتأليف ١٩٧٠م، ج١٣/١٧٣ وانظر مثالاً آخر في ج١٤/٢٥٥ (تح فهيم شلتوت وجمال محمد محرز).

(٦٥) النجوم الزاهرة ج١٥/١٧١ (تح إبراهيم علي طرخان ١٩٧١م).

(٦٦) المصدر السابق ج١٦/١٢٥ (تح جمال الدين الشيال وفهيم محمد شلتوت ١٩٧٣م).

(٦٧) أبو البقاء الكفوي: الكليات، تح عدنان درويش ومحمد المصري، دمشق وزارة الثقافة والإرشاد القومي ١٩٨١م، ج١/١١١.
(٦٨) الكليات ج١/٢٥.
(٦٩) أحمد بن محمد الحيمي الكوكباني: طيب السمر في أوقات السحر، تح عبدالله محمد الحبشي، صنعاء: مكتبة الإرشاد ١٩٩٠م، ص٢٦٩.
(٧٠) طيب السمر، ص٣٣١.
(٧١) محمد بن علي الشوكاني: البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، القاهرة: ط السعادة ١٣٤٨هـ، ج١/٤١.
(٧٢) محمد رشيد رضا: تاريخ الأستاذ الإمام، ط٢، القاهرة: المنار ١٣٤٤هـ، ج٢/١٥٦.
(٧٣) سيد بن علي المرصفي: أسرار الحماسة، القاهرة: مطبعة أبي الهول ١٣٣٠هـ، ص(ز).
(٧٤) أحمد شوقي: الشوقيات، ط التجارية بالقاهرة ١٩٣٥م، ج٢/١٨.
(٧٥) جبران خليل جبران: مستقبل اللغة العربية (ضمن أعماله الكاملة) بيروت: دار صادر ١٩٥٩م، ج٣ ص٥٤٤-٥٥٢. وانظر أمثلة أخرى في ج١/٥١.
(٧٦) مارون عبود: سبل ومناهج، بيروت ١٩٥٠م، ص٥٦، والمماس: منخس البقر.
(٧٧) عمر فاخوري: الفصول الأربعة، بيروت: دار الثقافة ١٩٧٢م، ص٨٨.